مراحل تطوير التفسير

لقد مرَّ عِلْمُ التَّفسير بجملة من المراحل التي تطوَّر فيها وتبلور شيئاً فشيئاً؛ حتى وصلنا بهذه الصيغة التي هو عليها الآن، تلك المراحل هي:

المرحلة الأولى (مرحلة النشأة)

التي تبدأ **مع أبتداء نُزُول القرآن الكريم، وتنتهي بنهاية عصر تابعي التابعين**؛ أي: **نهاية القرن الثالث الهجري**.

أما فيما يتعلق بالمقدار الذي فسره ﷺ من القُرآن؛ فقد لَقِيتُ هذه المسألة أختلافاً بيناً وتجاذباً للآراء بين العلماء؛ **فمنهم من قال** بأنَّ النَّبي ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا وقد فسر القُرآن كُلَّهُ سُورةً شورة، وآيةً آيةً، وكلمة كلمةً. **ومنهم من قال** بأنه ﷺ لم يُفسر من القرآن إلا النزر اليسير من الآيات المتفرقة هنا وهناك؛ وإلا فإنَّنا لم نشهد على أرض الواقع تفسيراً شاملاً للقرآن الكريم منسوباً إلى رَسُول الله ﷺ .

والحقيقة أن الفريقين قد وقفا على طرفي نقيض، وأمسكا العصا من طرفيها، وكانا بين الإفراط والتفريط؛ **ووَجْهُ الحق والصواب** المؤيد بالواقع في ذلك أنَّ النبي ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا وقد فسر من القرآن ما تحتاجه الأمة من بعده؛ ولا سيّما ما يتعلق بالأحكام ومسائل التكليف والحلال والحرام.

ولتفسير النبي القُرآن صُورٌ شَتَّى، منها:

١ - **تفصيله للمُجمل**: أمر الله تعالى بالصلاة في كثير من الآيات من غير أن يُبين كيفيتها، ولا تحديد أركانها، ولا عدد ركعاتها، منها قوله : ﴿ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ ﴾ [الأنعام: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ [الإسراء: ٧٨] ، فقال ﷺ في تفسيره لِلفْظِ الصَّلَاة المُجمَلِ: ((صلُّوا كما رأيتموني أُصلّي)). وكذلك الشَّأْنُ في الحج الوارد في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [سورة آل عمران: ١٧]، من غير أن يُبين سبحانه كيفية الحجّ، وبيان أركانه ومناسكه؛ فقال ﷺ : ((خُذُوا عني مناسكَكُم))... إلخ.

٢- **تقييده للمُطلق**: بيَّنَ الله سبحانهمن يحرُمُ التَّزويج بهنَّ من الأقارب بقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٣]، ثُمَّ أَطلَقَ سبحانه التَّزويج بمن عدا المحرمات بقوله

تعالى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٤]؛ فقال ﷺ مُقيداً هذا الإطلاق: ((لا تُنكَحُ المرأة على عَمَّتِها، ولا على خَالَتِها، ولا على ابنة أخيها، ولا على ابنة أُختها، فإنَّكم إن فعلتم ذلك؛ قطَّعتُم أَرحَامَكُم)) ! وبقوله ﷺ : ((يحرُمُ من الرَّضَاع ما يحرم من النَّسَب)).

٣- **تخصيصه للعام :** أوْصَى الله بأن يَرِثَ الأبناء الآباء والأمهات بقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: ١١]؛ فخَصَّصَ ﷺ

العُمُومَ الوَارِدَ في هذه الآية بقوله: ((نحنُ مَعَاشِرُ الأنبياء لا نُورَثُ؛ ما تركناه صَدَقَةٌ))، وبقوله ﷺ: ((ليس للقَاتِلِ مِيرَاثٌ!)) وبقوله : ((لا يتوارَثُ أهلُ مِلَّتين شتّى!)).

٤- **تبيينُه للغريب**: قال الله تعالى مبيّناً لنا بعض صفات المؤمنين المُبشرين:﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ ﴾[التوبة: ١١٢]، وعقّب النبي ﷺ على الآية بقوله: ((إن السّائحين هم الصَّائمون)).

٥ - **توضيحه للمُشكل**: ومن أمثلته ما يأتي:

أ- جوابُهُ لعَدِيّ بن حَاتِمِ الطَّائي حين سأله عن الخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ [البقرة: ١٨٧] : أهما الخيطان المعروفان؟! فقال النبيُّ ﷺ : ((هو سَوَادُ اللَّيل وبياضُ النَّهار))؛ مُنتقلاً بالمعنى من الحقيقة إلى المجاز!

ب - قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾[المائدة: ١٠٥]، يفهم كثير من الناس بالأمس واليوم هذه الآية الكريمة فهماً مغلوطاً؛ بترك الأمر بالمعروف النهي عن المنكر **والصواب:** لا تضركم ذنوب غيركم إن أهتديتم بالقيام بأمر الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن تركه

وهو مستطيع، فهو ضال وليس مهتدياً! وقد رُوِيَ حول هذا المعنى عن عدد من الصحابة.

ت - ما رُوِيَ عن أبن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ شقّ ذلك على الناس؛ فقالوا: ((وأينا لم يلبس إيمانه بظلم؟! فقال ﷺ : ليس

كما تظنُّون، إنَّما هو الشِّرْكُ، ألم تسمعوا ما قال لقمانُ لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣] .

٦- **تفسيرُه البياني**: ومن أمثلة تفسيره : قوله تعالى : ﴿ سمحوَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣]، إذ فسّرها بقوله ﷺ: ((صفاؤُهُنَّ كصفاء الدُّرُ الذي لم تمسَّهُ الأيدي)).

٧- **تفسيره لألفاظ قُرآنية استُعمِلَتْ في معنى إسلامي**: ومن ذلك: لفظ «القُنُوت» في قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، والذي كان يُفسّرُه العرب بأنه «الخُشُوع»؛ ولَكِنَّ الرَّسول ﷺ جَعَلَ من معانيه: «السُّكوت»؛ إذ رُوِيَ عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أتيتُ النَّبي ﷺ وهو يُصلِّي فسلَّمتُ عليه؛ فلَمْ يرُدَّ السَّلَامَ، فلما قضى الصَّلَاةَ؛ قال: ((لم يَمَنَعْني أن أَرُدَّ عليك السَّلَامَ إلا أَنَّا أُمِرْنا أن نقوم لله قانتين: لا نتكلَّمُ في الصَّلَاة!))؛ فكان

السُّكُوتُ في الصَّلاة وعَدَمُ الكلام أو ردّ السَّلَام هو التَّفسِيرَ الشَّرْعِيَّ النَّبوي الحكيم لـ «القُنوت»!